فقيد الأدب السوداني

التيجاني يوسف بشير

للأديب المبارك ابراهيم

في أواخر شهر يوليو المنصرم، منيت النهضة الأدبية الحديثة في السودان بخسارة جد فادحة قل أن يأتي الزمان لها بعوض، وذلك بوفاة شاعر هو من أنبل شعراء النهضة، هذا إن لم أقل إنه أرهفهم إحساساً أجمعين!

***

يعد الفقيد من أصغر شعرائنا المجيدين سناً، إذ كان مولده في مدينة أم درمان عام ١٩١٢

وقد تلقى علومه بمعهد أم درمان العلمي؛ وبعد تخرجه ساهم في تحرير جريدة «ملتقى النهرين»، قبل اندماجها في جريدة «حضارة السودان». ثم حرر في مجلة «أم درمان»، ومجلة «الفجر»

وكان الشاعر الشاب يؤمل أن تواتيه الظروف، فينزح إلى القطر المصري الشقيق، للانتظام في أحد معاهده العالية، غير أن جده العاثر لم يمكنه من إدراك هذه البغية

ومن رقيق شعره في الحنين إلى أرض الكنانة:—

عادني من حديثك اليوم يا مصر   رَنِّيٌ وطوفت بي ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد وجنت   بسمات على المباسم سكرى
إنما مصر والشقيق الأخ السو   دان كانا لخافق النيل صدرا!
نضر الله وجهها فهي ما تز   داد إلا بعداً عليّ وعسرا!

***

والتيجاني لم يكن كأولئك النظامين الذين إذا ما شاءوا أن يؤلفوا القوافي أتوا بالتعابير الجاهزة الجافة، فقوموا قصيدهم منها كما يقوم البناؤون البيت أو البناء بقوالب من الطوب... كلا لم يكن شاعرنا كأولئك، وإنما كان رحمه الله أشبه ما يكون بالمثال الماهر الذي يعمد إلى المواد الأولية البكر فينحت منها في غير محاكاة، تماثيل هي آية من آيات الفن الخالد على الزمن

وإليك أغرودة من أغاريد الشاعر الرقصة، وقد أسماها «النائم» قال:

أيها النائم في مهـ   ـد أغانيّ ولحني!
هكذا يدفق يا نا   عس في حسنك حسني
أنت يا واهب ألحا   ني ويا ملهم فني
إنما أصنع من كرمـ   ـك صهبائي ودني!
يا أمانيّ التي أعـ   ـبدها في كل لون
وأغانيّ التي ألـ   ـهمها ملهم جن!
والتي ذوبها المط   رب في الصوت الأغن
كلما طار بها اللحـ   ـن وفراها المغني:
خفقت ذات جناحيـ   ـن: مدوٍ ومرن!
عبرت كل فؤاد   وتمشت كل أذن!

وكل آثار الفقيد من هذا الضرب الذي يمتاز بالرصانة في الأسلوب، والسمو في الخيال، والتجديد في المعاني

***

وفن التيجاني في مجموعه، مزاج من الأحاسيس العاطفية المتناهية في الدقة، والتأملات الروحية الفلسفية الصوفية: التي ترى أن كل الكائنات، كبيرها وصغيرها، جليلها وحقيرها، تحدث عن جلال الخالق عز وجل

وليس أدل على صدق هذا القول من قصيدة شاعرنا التي نشرتها له «الرسالة» في العدد ٣٨ من سنتها الثانية، تحت عنوان

حراق الكتب افتقد الناس كتابي: «شو - كينج» و «شي - كينج» فلم يجدوها، فاضطروا إلى أن يستنسخوها من جديد. وقد اعتمدوا في هذا على ذاكرة شيخ قدير وعالم جهبذ كان قد اشتهر في عصره بالدقة وقوة الذاكرة، وهو «فو — سانج». ولهذا السبب قد أصبح كتاب «شو — كينج» ثمانية وخمسين فصلا بعد أن كان مائة.

ومهما يكن من الأمر، فان هذا الكتاب له أهمية عظمى من الناحية الأخلاقية، لاحتوائه على كثير من الحكم والمواعظ والأمثال والقصص التي تعلي من شأن الفضيلة والخير.

هذه هي المصادر القديمة التي يعتمد عليها. وهناك كتب أخرى قد كتبت في العصور المتأخرة وسنشير إليها عندما نعرض لصورها في شيء من التفصيل.

«يتبع»   محمد غلاب

« الصوفي المعذب » ، وهـذه القصيدة تمثله صوفياً من الطراز الأول ، ومنها : —

الوجـود الحق ما أو ... سع في النفس مداه
والسكون المحض ما أو ... ثق بالروح عراه
كل ما في الكون يمشي ... في حناياه الإلـه
هـذه النملة في رقتها ... رجع صـداه !
هو يحيا في حواشيها ... ويحيا في ثراه !
وهي إن أسلمت الرو ... ح تلقتها يـداه !
لم تمت فيها حياة الله ... إن كنت تراه !

* * *

وله من نفس القصيدة ، وكأني به كان يصور شعوره عند دنو الساعة الأخيرة :

أذني . . . لا ينفذ اليو ... م بها غير العويل
نظري... يقصر عن كل ... دقيق وجليـل
غاب يا نفسيَ إشرا ... قك والفجر الجميـل
واستحـال الماء فاستحجر ... في كل مسيل
يرجع اللحن إلى أو ... تاره بعـد قليل !

* * *

وكان حب الشاعر المفرط للبحث والتنقيب في أمهات الكتب الأدبية والفلسفية يحمله على أن يقطع ليالي برمتها ساهراً : يقلب صفحات كتبه تارة ، وصفحات أفكاره تارة أخرى ، أو يغازل عرائس أشعاره وقوافيه ، البارعات الجمال ، ذلك دون أن يقيم لصحته وزناً ، أو يعطي جسمه الضاوي راحته من المجهود

وفي ذلك يقول : —

ويح نفسي تنام من دونها الأ ... نفس شوطاً وما تهم بشوط !
أنا والنجم ساهران نعد الصبح ... خيطاً من الشعاع لخيط !
كم صباح نسجته أنا والنجـ ... م وأرسلت شمسه من محطي !

* * *

وكان من جراء هذه الجهود المتواصلة التي كان يبذلها الشاعر في الانكباب على الدرس والتحصيل أن أصيب بداء « السل » الذي أودى بحياته في أقل من نصف عام . فرجع هـذا اللحن الجميل إلى أوتاره ، على حد تعبير الشاعر . والشاعر لما يزل في ريعان الشباب ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين

* * *

هذا وقد خلف الشاعر ديوان شعره ، الذي كان يعده للطبع بعنوان « إشراقة » . وقد قدم له بقصيدة شيقة جاء فيها :

قطرات من الندى رقراقه ... يشرق البشر دونها والطلاقه
قطرات من الصبا والشباب النضـ ... ـر منسابة به منساقه
ورذاذ من روحي الهائم الولهان ... أمكنت في الزمان وثاقه !
قطرات من التأمل حيرى ... مطرقات على الدجى براقه
يترسلن في جوانب آفاقي ... شعاعاً أسميته « إشراقه »

* * *

في سنة ١٩٢٧ ، نشرت له مجلة « البلاغ الأسبوعي » أولى قصائده ، وهو يومذاك طالب حديث السن في الخامسة عشر من عمره ، ومطلعها : —

تبدي الصدود وإنني أهواها ... حسناء ما عرف الهوى لولاها

وأما آخر ما نظمه الشاعر وهو على فراش الموت ، فقصيدة بليغة مؤثرة ، يخاطب فيها صديقه الشاعر السوداني المشهور : محمد أنيس . وفيما يلي جانب منها : —

أرأيت الصديق يأكله الدا ... ء ويشوى عظامه الحراق
جف من عوده الندى فتعرى ... وتنفت من حوله الأوراق
وأنا اليوم لا حراك كأن قد ... شد في مكمن القوى أو
بت استنشق الهواء اقتساراً ... نفس ضيق وصـدر مط
وحنايا معروقة ، وعيون ، ... غائرات ، ورجفة ، ومحاق
ما لنا دون ذا احتيال فإن الله ... في علمه الشئون الدقاق
كيف أجزيك يا « أنيس » ومالي ... من يد بالجزاء مثلي ت
فالقريض الذي تقدر لا أعلم ... إن كان في الجزا يستـ
فاحتفظها ذكرى فإن مت فاقرأ ... بينها الحب ما عليه مذ
أو حيينا فسوف نقرأ فيها ... فترة لا أعادها الخلاق

* * *

ألا رحم الله فقيـد الأدب السوداني ، فلو عاش لغدا شهرة مدوية بين قراء العربية في شرقنا العزيز .

(أم درمان سودان) المبارك ابراهيم

obeikandi.com